مُقَدِّمَة
ابن خلدُون

بسم الله الرحمن الرحيم

الكتاب: مقدمة ابن خلدون.
المؤلف: عبد الرحمن بن خلدون.
المحقق: عبد الله محمّد الدرويش.
رقم الموافقة: (٧٧٠٨٤).
تاريخها: ١٤/٤/٢٠٠٤م.
الطبعة الأولى
تاريخ الطبع: ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م.
عدد النسخ: /١٠٠٠/ نسخة.

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ
أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ

جميع الحقوق محفوظة للمحقق

توزيع:
دار يعرب
دمشق: هاتف: ٢٣١٢٥٠٩
ص.ب: ١٢٣٧٣

مُقَدِّمَة ابن خلدُون

الجُزء الأوّل

تأليف

العلامة ولي الدين عبد الرحمن بن محمد

ابن خلدُون

(٧٣٢ - ٨٠٨ هـ)

حقّق نصوصه، وخرّج أحاديثه، وعلّق عليه

عبد الله محمّد الدّرويش

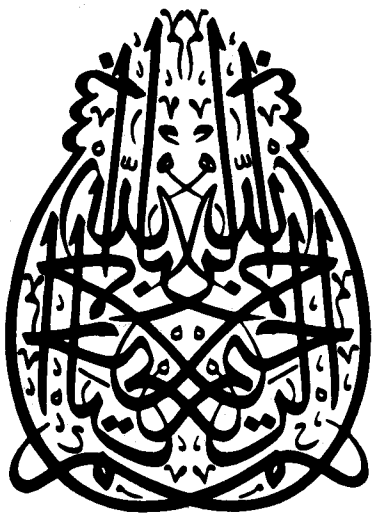

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، وسلام على عباده الذين اصطفى، وبعد:

مقدمة ابن خلدون مَعْلَمَةٌ ثرة بكل طريف، أظهرت تفرّد مؤلفها، وغَناء علومها، وتميزها.

وهي معين ينهل منه الواردون، ويَقْبس منه السالكون، منذ تأليفها إلى الآن، فلم تفقد جدتها، رغم تقادم عهدها، وإن أصابها غبار وتراكم، مما دعا العلماء للعناية بها؛ لإزالة الشوائب التي حجبت محاسنها، ومنعت من فهم مقاصدها.

ولكل نسخةٍ سبقت هذه خصالٌ تختلف عن مثيلاتها، وإن كانت هذه قد جمعت فضائل السابقين، وأضافت ما أمكن مما ستجده مسطراً.

وقد تميزت هذه النسخة بـ:

١ـ المقابلة على المخطوطات المتوفرة في مكتبة الأسد بدمشق. وكانت العناية بالنسخة الكاملة الموسومة بالظاهري، وهي المهداة للملك الظاهر برقوق عام ٧٩٧هـ، وعنها أخذت هذه النسخة، وهي في ٣١٩ ورقة، وهي ذات خط نسخي حسن، وقد رمزت لها بـ (**ظ**).

ـ والنسخة الثانية كتبت سنة ١٠١٢هـ، وهي مشوشة الأوراق، وقد تناوب في كتابتها اثنان، لاختلاف الخط، وهي في ٢٨٩ ورقة، وقد رمزت لها بـ (**ث**).

٢ـ إثبات فوارق النسخ المطبوعة سابقاً (**ن**).

٣ـ ضبط المشكل.

٤ـ شرح الغريب من:

ـ الألفاظ.

ـ الأماكن.

ـ الأعلام.

٥ـ المطابقة بين المقبوسات ما أمكن.

٦ـ دراسة المقدمة والتاريخ ومحاولة تعليل بعض الظواهر المشكلة في حياة المؤلف.

٧ـ الفهارس المتنوعة للتمكين من الاستفادة من الكتاب.

٨ـ التنبيه على بعض ما وقع فيه الأفاضل في طبعاتهم، من أمثال:

أ ـ تخطئة بعض الألفاظ، والصواب خلاف ما ذُهِبَ إليه، مثلاً تخطئة الشاعر في قوله: (عباديد) ـ انظر فصل في إبطال صناعة النجوم، وفي هذا: تخطئة الصواب.

وإثبات جمع لا وجود له في اللغة، إذ قال: (إنها محرفة عن عبابيد جمع عبد). والصواب أنها لا واحد لها من لفظها هي وعباديد.

وعبد يجمع على: (عبدون، وعبيد، وأعبد، وعِباد، وعُبْدان، وعِبدان، وعِبَّدان، ومَعْبَدَة، ومَعَابِد، وَعِبدَّاد، وَعِبدَّى، وعُبُد، وعَبُدَ، وَمَعْبُوداء). وجمع الجمع: أعابدُ.

ب ـ استغلاق فهم بعض الجمل، رغم أن السياق العام يوضح المقصود منها، انظر مثلاً فصل في إبطال الفلسفة.

ج ـ الظن أن في بعض الجمل سقطاً أو تحريفاً، لعدم تبين المراد من العبارة، انظر آخر بحث علوم السحر والطلسمات.

هـ ـ عدم تخريج الأحاديث النبوية.

و ـ تجاهل بعض الآيات القرآنية أو نسبتها إلى غير موضعها.

ز ـ عدم مطابقة النصوص التي نقلها المؤلف على مصادره.

* * *

وقد نصَّ ابن خلدون في بحثه عن **مقاصد التأليف**، في الفصل (٦/٣٥). على الأشياء الداعية للتأليف، فذكر منها سبعة.

ولعلي في عملي قد حققت مقاصده السبعة ـ وإن لم يكن ذلك مما لا مزيد عليه، إذ لا بد من وجود القصور في العمل ليظهر فضل الآتين، وفوق كل ذي علم عليم ـ فناقشت أموراً مستجدة لم يتعرض لها، وأوضحت مشكلات عرضت، وشرحت مشكلات استغلقت، وكشفت عوار قضايا لم يتنبه لها، كما بوبت ونظمت مداخل لكل الفصول تعين على فهم المراد وتساعد على استجماع الموضوعات، وهي تشبه الملخصات التي لا تخل بمقصد المؤلف. كما ربطت بالإشارات والإحالات المفرق والموزع في الفصول المتباعدة. فأكون بذلك قد حققت مقاصده التي ارتضاها، وأعنت على إيصال مبتغاه.

كما استفدت من جهود السابقين في متابعتهم لهذا الكتاب تحقيقاً أو تعقيباً أو دراسة، ولا سيما من كان له اليد الطولى في تحقيق الكتاب سابقاً، فأفدت منهم، وأعنت على تطوير عملهم والارتقاء به ليصار إلى فهمه على الشكل الذي أرادوه وسعوا إليه، فجزاهم الله خير الجزاء، وأعان على تحقيق كل ما فيه الخير والرضا.

* * *

أوراق خلدونية في مطلع قرن جديد

ما هي الأسباب التي جعلت الناس يعزفون عن الاستفادة من كتاب ابن خلدون قروناً كثيرة؟!.

هل هي أسباب تعود إلى عدم قدرة العقل العربي في تلك القرون على فهم ما قدَّمه؟.

أم أن هناك جريمة ما اقترفت في حقّ هذا الرجل ـ وبالتالي في حقِّ الأجيال التي تلته ـ ساعدت على إغفاله، واقتلاع فكره من أحضان أمته وشعبه لتنقله إلى أمم أخرى قَدَّرَتْهُ قدره، واستفادت من ثاقب فهمه، فقفزت قفزات فاهمة وواعية ألقت بكل أعبائها المثقلة، وأصبحت في مكان الصدارة...

أما إنَّ العقل العربي غير قادر على الاستيعاب فذلك غير واردٍ فقد قدم العلماء في عصره وفي العصور المتلاحقة الكثير من العلوم والمعارف المنبئة عن تفهم ووعي..

فلم يبقَ إلا أن هناك مؤامرة دبِّرت لم يكن يراد منها كتابه بالذات، وإنما أريد منها شخصه.. وهذا يجعلنا ندمج بين المسألتين، فإن المؤامرة ضد الشخص لذاته معركة نابعة من علل نفسية داخلية تنعكس، عن عقولٍ لم تعش تربية إيمانية صحيحة..

إن الأسباب التي ساعدت على تجاهله، وغمطِه حقَّه، تعود إلى ما ذهب إليه في مقدمته من طبائع العمران، من أمثلة:

- عدم وجود عصبية قوية يعتمد عليها.
- تسلط العصبيات القوية والضعيفة عليه.
- وصوله إلى مرحلة الهرم وتعرضه للصدمات في أهله وأبنائه..

ويضاف إليها:

- الحرب الشخصية الخفية على النطاق السياسي.
- الحرب الدعائية الطاعنة في أخلاقه وسلوكه.

كما يضاف إلى ذلك، وهو أخطرها:

- طعن العلماء المقبولين عند الناس في علمه وفهمه.

فهي حربٌ استَخْدَمت لبوس الدين مما أكسبها قدسية جعلت الناس يحجمون عن الثقة به وبما يقوله.

ومنشأ ذلك والداعي إليه:

- الحسد؛
- والبغي: ﴿وما اختلفوا إلا من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم﴾.

وقد نَفَسَ عليه علماء عصره تَفرُّده وفهمه وحظوته عند ذوي السلطان..

وكيف يقبلون على أنفسهم أن يتقدمهم رجل غريب الدار لا أهل له يشدون أزره، ولا عشيرة تحمي ذمامه...؟!

كيف تقبل النفوسِ التي لم تتزَكّ بعدُ أن يكونِ لغيرها العزُّ والسلطان والنجاح...!! وهذا ما يحدث دائماً في المجتمعات، ولم يكن عبثاً ما حدثنا عنه ربنا عز وجل في كتابه العزيز عن الأمم التي قتلت أنبياءها، ومنعت العلماء من أداء علمهم، وتبليغ مكنون صدورهم، بل تآمرت عليهم بكل الوسائلِ من غيبة ونميمة وسعاية..

إن المتتبع لسير علمائنا يلحظ شيئاً مهماً يبرز فيه الصدامات الصريحة والسافرة بينهم، بحيث أصبح المعيار الموضوع لبحث تلك المعضلة: أن كلام المتعاصرين بعضهم في بعضهم غير مقبول.

وهي عبارة مشكلة لا تتفق ومنهج النقد الحديثي؛ لأن المعاصرة تكشف أشياء غير ممكنة أو متوفرة للآخرين ممن لم يعش معهم وتجمعه وإياهم ظروف واحدة؟! وقد كنت أقف منها موقف المتشكك في صحتها والفائدة منها إلى أن وقفت على حقيقتها، والمعنى المراد منها. يظهر والله أعلم أن من دعا إلى ذلك أراد أن يحلّ الإشكالات المطروحة أمامه من خلال ما اكتشفه من نوازع الحسد والبغي الموجودة في النفوس.

ويكفي أن ننظر إلى عصر ابن خلدون لنلمس حقيقة هذا الواقع، إذ كثير منهم يدعي أن الآخر سَلَبَهُ كتبه، أو أخذ أفكاره.. وبالتدقيق في حقيقة المتنازعين نجد أنهم أعلام عصرهم، وإليهم المفزَع في الملمّات إلا أنَّ أولئك كانوا يبحثون في القضايا الآنية الشاغلة لأذهان أفراد المجتمع فيما يتعلق بحياته الدينية والمعاشية المباشرة.. والتي لا تتطلب من العقل جهداً أو قيمة ما.. إنهم أبناء عصر آثر الراحة الفكرية الباعثة على عدم النهوض وتحسين الأوضاع.. إنه عصر الهرم الذي بدأ يدبُّ في أوصال الأمة من قرونٍ تجلت صورته في عصور لاحقة حيث آذنت بدماره.

ولعل ابن خلدون لم يلحظ جانب الهرم الذي يلحق الفكر في مجموع الأمة، فبقيت نظريته عن الدول فقط، ولو أنه أَسْقَطَ نظريته على حالة العلماء المعاصرين له لاكتشف حقيقة ما يعانونه من هَرَمٍ نتج عن الترف الذي يعيشونه والمكاسب التي يحصلونها من علوم عاشوها أو تكسبوا بها..

فليس مستغرباً أن يدافع الإنسان عن لقمة عيشه فيما يظن، ولو أدى ذلك إلى اختلاق الأكاذيب والادعاءات والدسائس الخفية والظاهرة.

وكم يُسَرُّ أحدهم حين يجد ما يساعده على الطعن فيمن يفوقه علماً وفهماً، وخاصة إذا وجدَ مَغْمَزاً يؤلب الحكام على صاحبه، وهذا ما كان متوفراً في حياة ابن خلدون وكتاباته، فهو حين يتحدث عن العبيديين أعداء العباسيين يعطي خصومه أسلحةً للفتك به وتدميره.. وبما أن ذلك لا مكان له في حياة هذا الإمام، فلا أفضل من طمس معالم فكره بين أفراد عصره، ونسيان ما يحيط بكتاباته في العصور التي برز فيها عزٌّ جديد للعباسيين ساعد على طمس معالمه وإخفائها...

ولا يعني هذا وَصْم كل العلماء والأفراد بهذه السمات، وإنما تبيين حقيقة من كان بيده الأمر، ويستطيع التغيير، وإلا فإن من عرف ما يمتلكه ابن خلدون من فهم لم يكن قادراً على الاستفادة مما كتبه لنقصٍ في أدواته، أو لمعرفته أن ذلك يحتاج إلى مؤسسات عامة تستفيد مما كتبه، وتحرص علىً تطبيقه وتطويره..

* * *

لم يكن ابن خلدون ممن ينظر إلى علماء عصره نظرة احترام وإكبار (إلا القليل منهم)، ويحث السلطان على إقصائهم وإبعادهم عن حاشيته، ويعلل ذلك بأسباب منها:

- عدم مطابقة أقوالهم لأفعالهم.
- عدم مقدرتهم على إعطاء المشورة السياسية لعدم استيعابهم لمجريات الأحداث:
  ١- لانغماسهم في الترف والدعة.
  ٢- ولاعتبارهم موظفين كباقي الموظفين الذين هم عيال على الدولة.

ولعل نظرته هذه إلى العلماء، قد جعلت منهم أعداءً له يحاربونه، ويكيدون له.

* * *

الدوافع غير المعلنة في كتابة المقدمة:

إن جملة الظروف المعاشية التي لابست حياة ابن خلدون أبرزت الحسّ العام بالغربة في عالم كله فتن وزلازل.

إذ بدلاً من التعاون المشترك بين أبناء الأمة الواحدة، بل القبيلة بعشائرها.. نجد الخصومات على أوجها، والصدامات تعصف بأركان الدولة، وتؤذن بخراب العمران.

الدولة الكبيرة التي ينتمي إليها ابن خلدون مقطعة الأوصال، مفككة العرى، تتقاذفها المحن والبلايا..

في كل يوم خبرٌ جديدٌ عن ضياع جزءٍ من ذاك العالم، وإن لم يكن من خارجه، فما يجري بين أفراده أشدُّ وأنكى.

وكثيراً ما تتناقل الأخبار عن أمم محيطة بذلك المعمور ترسم وتخطط لاختراقه وإخضاعه لسلطانها..

والذي يحزُّ في النفس ويبعث على الأسى، أن أفراد هذه الأمة بدلاً من أن توحدها وتزيل ما بينها من خلافات ــ المصائبُ التي تفصلهم عن إخوانهم وأبناء جلدتهم، يتناسون ذلك ويستمرون في لهوهم وأخطائهم.. وكأن النخوة والشهامة قد نزعت من قلوبهم، وجعلت منهم أجساداً خاوية هشة لا روح فيها ولا حياة...

ومن ذا الذي يتأثر بهذه الأوضاع المأساوية؟! ومن ذا يشعر بالجراح التي يعاني منها أبناء دينه؟! إنهم ولا شك الذين جعل الله في طباعهم رهافة الحسِّ والإحساس بالواقع على وجهه..

إنهم ممن يبحثون عن المضمون ويعوِّلون على نتائجه، ولا يأبهون بالشكل إلا إذا قَدَّمَ فائدة وجدّة..

ولعل خير من يمثِّل هذا الموقف العلامة ابن خلدون الذي أضناه الهمّ، وأتعبه الفكر، إنه المحكوم منذ نشأته بسماع ذهاب أمجاد أسرته، وتفكك دولتهم، واقتطاع أجزاء متتالية من أسبانيا التي نزحوا عنها.. غير الأخبار المتكررة والمسموعة عن غزوٍ ماضٍ قريب لم يبعد عهده للتتار والمغول..

وكأني به قد أعياه ذلك فدفعه ليحاول إزالة العوائق من عالمه، ولذلك ركب الأخطار في العمل في قصور الحكام، وهمه يدفعه ليصل إلى أعلى المناصب ليستطيع أن يكون ذا أثرٍ حسنٍ، وهو يسير نحو هدفه، تتلمس خطوته مقتربة من بوادر إصلاحه، ومعالم نجاحه..

لم يكن إنساناً يقبل بالأمور على عواهنها وعلاتها، إنه يحاول دائماً أن يصحح ويقوِّم..

رفض أسلوب كُتّاب الرسائل السلطانية بالطريقة التقليدية، إنه يبحث عن المضمون، فما معنى أن يضيع في الشكل؟ لا بدَّ من تغيير، وكيف يتم؟ لا بدَّ من وسائل وطرائق،.. وها هو يبحث وينقب، ولعل هذه البداية له أبرزت شخصيته كإنسان متميز ينظر إلى الأمور بعين الرجل الفاهم الواعي، فلا يمرُّ شيء قربه إلا ويرى فيه أشياء لم يرها غيره، ذلك أنه يريد الجَوْهَرَ ولا يهتم بالعَرَض.

* * *

عوامل تجاهل المقدمة:

نتيجة للظروف الاجتماعية التي يعيشها المجتمع في أيام ابن خلدون لم يكن من الممكن الاستفادة من المقدمة، ويعود ذلك لأسباب:

ــ تقليل العلماء في عصره من شأن مقدمته.

ـ سلوكه الخاص الذي جعل الكثير ممن يحيط به يعزف عن الاستفادة مما قدمه..

ـ **وأعظم تلك الأسباب** :

عدم الشعور لدى قارئه بفائدة فعلية يستطيع أن يستفيد منها، ذلك أن طبيعة الطرح المقدم يحتاج إلى مؤسسة كبيرة ـ كالدولة ـ لتستطيع توظيف المعالم المقدّمة في تلك المقدِّمة.

و لم يكن القادة الذين احتك بهم ممن هو مؤهل لتحصيل الفوائد العملية من مقدمته لتثبيت حكمه أو محاولة تجنب ما فيه دمار دولته.

ولذلك سُرَّ ابن خلدون كثيراً حين لقائه بتيمورلنك، لأنه وجد فيه تحقيق نظريته، وأحسب ـ والله أعلم ـ أن في حاشية تيمور الكثير من الأتراك الذين هم من قبائل الخزر المشتركين مع تيمور في النسب، وقد استمعوا لحديث ابن خلدون الشيق عن طبائع العمران، وخاصة أن سمعة ابن خلدون كانت قد وصلت إلى تيمور من قبل، فهو معروف بفكرته، مطلوب من قبل الساسة فحسب، ولذلك قدّم لتيمور خلاصة فكره في النقاش، ثم قدَّم كراريس بَيَّن فيها طبائع بلاد المغرب.

ويظهر أن تيمور لم يستفد فعلياً من فكر ابن خلدون، ولكن أقاربه المنافسين له قد وجدوا فيها ما دفعهم إلى التفكير بتأسيس ملك يقوم على المنهجية التي ذكرها ابن خلدون مستفيدين من الوثائق التي قدمت لتيمور ولا سيما أنها ترجمت إلى اللغة التركية.

ومما يؤكد ذلك، ما شاهدناه بعد ذلك من فتح القسطنطينية، وحديثها المبشر بفتحها مذكور في المقدمة..

إضافة إلى إلزام كل من يعمل في السلك السياسي للدولة العثمانية بقراءة المقدمة.

ثم ترجمة المقدمة إلى اللغة التركية.. ذلك أن العثمانيين في أول أمرهم كانوا تابعين في الثقافة للغة العربية، فكانوا كساسة يتقنون اللغة العربية.. وفي الفترة التي ترجموا فيها المقدمة، وهي تسبق ترجمة الأوربيين لها بما يزيد على القرن.

ذلك أنهم بدؤوا عملية التتريك من لحظة قرروا الترجمة إلى لغتهم الأم.

وبعد ذلك بما يقارب القرن ترجمت إلى اللغات الأوربية، ودرست دراسة متقنة، قناعة منهم أن سِرَّ نجاح العثمانيين نابعٌ من المقدمة لما شاهدوه من عنايتهم بها.

وكان لدراسة الأوربيين لها أكبر الأثر في معرفة مكامن الضعف في كيان الدولة، فشجعوا عصبيات كل دولة من جهة، حتى أجهزوا بعد مضي زمن يقارب القرن على الرجل المريض..

ذلك أن ذاك الرجل لم يعد قادراً على تفهُّم المقدمة بالشكل الذي وضعت له، وحسب أن العناية بالمقدمة في نطاقه السياسي الخاص يحفظ للدولة كيانها ويُبْعدُ العامة عن معرفة أسرار الملك، فالذي فُرَّ منه وُقِعَ فيه، ولكن مع أعداء ألداء خططوا لهَ ودبروا حتى قضوا عليه وعلى من يمكن أن يفكِّر بتفكيره.

قد يقول قائل: ما ذهبت إليه محض ظنٍّ، وليس مستنداً إلى وثائق رسمية، تثبته وتؤكده.

وهو محق في قوله، إلا أن المسار العام الذي جرى يوحي بصدق ما توصلت إليه، وربما يكشف لنا التاريخ وثائق تبين طبيعة دراسة الأمراء العثمانيين الأوائل فتتضح حقيقة ما ذهبت إليه..

والذي يؤكد أن الأوربيين حطموا العثمانيين بعد دراسة المقدمة، النظرة العدائية للعرب التي اتسم بها (هيغل) في دراسته للتاريخ، والتي تؤكد الوقائع أن روح حملاتهم كان منطلقةً من أفكاره، وأفكار تلامذته.

ولذلك لم نر العرب يهتمون بالمقدمة إلا بعد أن وجههم إليها الأوربيون، ليس حبّاً بهم، وإنما مساعدة لهم في تحطيم الدولة العثمانية وتقويض دعائمها.

وكأني بهم قد وضعوهم في إطار محدد غير قادرين على الانفكاك منه، في توجيههم لفكرة محددة، شعروا على أثرها بفقدهم كُل شيء.

وربما كان من عوامل استمرار العرب في متابعة ابن خلدون والاهتمام به، الرغبة العارمة في داخل المثقفين العرب للانعتاق من إسار الغرب المسيطر على عالمه، للانفصال عنه وإثبات أنه أقدر منه على الفهم والإدراك، وربما من أجل ذلك تأكد اهتمام العرب بابن خلدون في فترة تصفية الاستعمار في العالم العربي[1].

* * *

قد يسأل سائل: ما بال العالم العربي في أخرياته يدرس كثيراً ابن خلدون؟ ألا يحسنُ به أن يعود لدراسة المعاصرين الذين مَحَّصُوا العلوم التي درسها، وقدموا أشياء مفيدة أكثر من المقدمة؟.

ذلك أنهم يظنون أن كل جديد لا بد أن يكون خيراً من القديم، ولم يعرفوا ــ أو أنهم عُلِّموا نتيجة ظروف اجتماعية كثيرة احتقارَ ماضيهم وتراثهم.. وشعورهم بالنقص إذا نُسِبُوا إلى تراثهم!!.

---

(١) ــ انظر تفصيل هذه الظاهرة في الإشكالات التاريخية في علم الاجتماع السياسي عند ابن خلدون. د. عبد القادر جغلول (ص٨٧).

إن الأمم الْمُحْدَثَة التي لا جذور لها، تشتري من الأمم التي سبقتها حضارتها، وتزرعها في أراضيها، لتثبت لنا فيما يأتي من الزمن أنها أثبت جذوراً منا، وأسبق حضارة من حضارتنا..

إنَّ ابن خلدون ـ رغم تقدم زمنه عن زمننا ـ جديدٌ جدَّةً يشهد له بها، من نقف الآن خاشعين خاضعين نستجدي منهم ما نحسبه نِتاجهم وإبداعهم.

إنني لا أدعو أن ننسلخ من عصرنا، أو نتقوقع ضمن تاريخنا، دون أن نلحظ ما يجري في العالم، ونسخر ما فيه الفائدة والصلاح لنا ولأمتنا.

ولكن لا يعني ذلك أن نكون مسلوبي الإرادة أمام الآخرين، نشعر بالعجز والخوف والقهر..

إن دراسة ابن خلدون في ظاهرها الأولي توحي للقارىء بالعجز والاستسلام للواقع.. ولكنها في حقيقتها تُوَصِّفُ له الواقع، وتبين له مواقع خطْوه، وتكشف له عن نقاط ضعفه.

ذلك أنه يجب علينا التعرف على الأمراض التي نعانيها، ونكتشف حقيقة المرض الذي أصابنا قبل أن نبادر إلى وصفات العلاج التي لا فائدة منها، والتي تكاد تكون مخدِّرات تزيد المرض مرضاً.

إن الإنسان القاصر عن فهم أمراض مجتمعه غير جدير بأن يكون طبيباً يصف الأدوية. وكم ابتلينا في تاريخنا بمن يتصدر للعلاج، وهو أبعد الناس عن الصحة...

وهل صحيح ما يذهب إليه المتشائمون: من أنه لا نهوض لأمتنا مما هي فيه، حتى ولو نزعت جلدها، وغيرت لبوسها؟!

وأكاد أقول معهم: نعم، ما داموا يرغبون في نزع ما يميّزهم، وتغيير ما يزيّنهم..

قد لا يكون ابن خلدون النهاية في فهم عالمنا، ولكنه البداية العملية التي تدفع لاستجلاء الصورة ووضوحها انطلاقاً من فهمنا، ومعارفنا، مما يجعلنا نشعر بخصوصيتنا أمام مجريات العصر الراهن، الذي يسعى لنسيان ذكرانا، إلا فيما يريده من تجارب يشاهد نتائجها، في حقول تجاربه. وليس هذا بخافٍ على البسطاء من الناس، فكيف بغيرهم؟!.

* * *

خصوصية ابن خلدون

اختلف ابن خلدون عن سابقيه ممن عالج قضايا المجتمع بتميزه في طريقة المعالجة.

لم يجعل من نفسه واعظاً، وإن كان ينبه إلى الطريق الأمثل، ذلك أنه يُوَصِّفُ المجتمع، ويكشف دواخله، باحثاً عن القوانين الحاكمة لسيرورته.

رغم أنه لم يُنَظِّر لمدينة فاضلة، إلا أنه حمل في داخله همَّ ما يمكن أن يحدث، والظروف الأفضل والملائمة لتحسين الصورة العامة للمجتمع.. ولذلك وجدناه يقرر بعد دراسته للمحيط الغارق فيه أفضل إطار يُمَكِّنهُ من التغلب على أعراضه المرضية التي لا علاج لها إلا في الدين.

إنه يريد التعرف على المجتمع، وليس كما ظنَّ بعض الدارسين بأنه اكتفى بذلك، ولم يرد التجاوز.. إنه بعمله يماثل الطبيب الذي يبحث عن المرض وأسبابه، ثم يصدر العلاج الناجع.. وهو بذلك يصل بنا إلى اكتشاف الوسائل المعينة على نجاح المجتمع.

وربما كان من عوامل تميزه على الآتين بعده، أنه عالج المجتمع على أنه كتلة تحتوي الألوان كلها، وأنه لا يمكن أن يجعل المجتمع لوناً واحداً، بل إنه يذهب إلى أبعد من ذلك حين يعتبر اللون الواحد متدرجاً، وهذه النظرة نابعة من فهمه للدين الذي أبان عن وجود التنوع في البشر في كل خصائصهم حتى اللون..

فمن ظن أن المجتمع بعامة يصبح إيماناً كاملاً كان بعيداً عن فهم حقيقة المجتمع، وبالتالي فهم حقيقة الدين.. وربما كان في الحديث الشريف: «افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة...». ما يؤكد هذا المعنى، إذ أن التنوع والتعدد هو السمة العامة الطابعة للمجتمعات وإزالتها مخالفة لطبيعة الكون..

ولذلك قلت: إن الحياة تحتوي ضمنها تَدَرُّجَ الألوان، وكل ذلك ليصار بالمرء إلى اختيار اللون الذي سيصبغ به، ذلك أنه في تجربة منذ خلق.. وما قصة آدم عليه السلام وإبليس ـ لعنه الله ـ إلا تأكيد للمعنى الذي يجب أن يتأصّل في القلب، إذ أن الواقع في أحد الألوان، قد يجد في نفسه كوابح تمنعه من تجاوز ذاك اللون، ذلك أنه إذا تجاوزه عاد إلى طبيعته الأصلية وهذا ما كان من آدم صلى الله عليه وسلم في حين سقط إبليس.

إن مجمل الشريعة يؤكد وجود التنوع والاختلاف، وهو بالتالي يحث على نَبْذِ ذلك ﴿ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم﴾[هود: ١١٨] أي: خلقهم ليكونوا مختلفين فمن كان على الهدى كانت له الرحمة من الله تعالى. ففي ذلك دعوة إلى وضع الأمور في نصابها الصحيح بعيداً عن المثالية مع الآخرين.. ذلك أن المثالية تطبق في النطاق الفردي ومن أراد تعميمها طحنه الواقع الأليم...

إن وعي ابن خلدون لأحكام الشرع وما بنى عليه مطالعاته وتطلعاته جعلت منه إنساناً متميزاً، له خاصية معرفية واضحة المعالم يستفيدها من أبصر حقيقة المنطلق الأساس الذي اعتمده.

* * *

عاد ابن خلدون بالفلسفة من تحليقها في سماء اللوامع واللامحسوس إلى ملامسة الواقع وتحسس قوانينه وضوابطه.

وهو في هذا يختلف عما كان عليه السفسطائيون الذين قالوا بعدم الحقيقة المطلقة في الدنيا، وأنها نسبية. منطلقين من واقعهم الاجتماعي الموجود على الأرض ذلك أنهم كانوا من عامة الناس.

فهو يختلف عنهم بكونه من طبقة الأسياد في تعاملهم مع حياتهم وسلوكهم، فهو من جهة يعتبر نفسه فوق كثير ممن في مجتمعه، ولكنه من جهة ثانية منطلق من جذور المجتمع، وكثرة النكبات التي أصابته جعلت منه شخصية متميزة تجمع صفات الطبقتين أو بمعنى أوضح مكنته من امتلاك ناصية فهم حقائق ما يجري في الطبقتين، وهو من أجل ذلك تمكّن من المزاوجة بين المدرستين الفلسفيتين، محققاً لنفسه مدرسة خاصة ميَّزته عن باقي المدارس الفلسفية مما دعت المحدَثين لاعتبار مدرسته متقدمة في مضامينها، متوافقة مع أحدث ما وصل إليه فلاسفة العصر الحالي.

فهو ينظر إلى الأمور من خلال عواقبها منطلقاً من بدايتها المرتبطة بالواقع ارتباطاً أكيداً، راغباً في نقل المجتمع من مرحلة المرض إلى الشفاء التام، ولكن بطريقة صحية لا تخالف الطبيعة العامة ولا طبائع الكون..

فهو يسخّر معرفته بالشبكة الاجتماعية لكافة الطبقات وما فيها من محاسن ومساوىء، ليوصلها إلى الدرجة العليا من إمكانية تجاوز الأخطاء والسلبيات.. وليتمكن كل فرد من أداء وظيفته بعيداً عن التنطح لأشياء ليست له، ولا يمكن أن تحصل له إلا بالانتباه لما قدَّمه من معلومات أساسية في حياته وتكوينه.

* * *

الذين درسوا العصبية عند ابن خلدون تجاهلوا إشارته إلى أنها تكون بالنسب أو ما في معناه.. وذكر هنا الولاء والحلف، والتي يبغى منها المناصرة والدفاع.. فلذلك قال: إن النسب إنما فائدته هذا الالتحام الذي يوجب صلة الأرحام حتى تقع المناصرة والنعرة **وما فوق ذلك مستغنى عنه.**

إذ أنه لا ينظر إلى النسب إلا من حيث الفائدة المرجوة منه والتي حصرها بـ:

١ـ الوصلة.

٢ـ والالتحام.

ولذلك قال: **النسب أمرٌ وهمي لا حقيقة له.**

فإذا هو ينظر إلى النسب بمعناه العام الذي يحقق:

١- التواصل.
٢- والنصرة.

فبالتواصل يكون التواد والاتفاق على فكرة جامعة تربط بين الأفراد، فإذا عدمت، عدم التناصر..

وهو بهذا يفيدنا معرفة الجامع العام للأفراد في المجتمعات الحديثة، التي استعاضت عن النسب، بالتجمعات بأصنافها المتعددة، والتي يجمعها رابط المصلحة المشتركة مما يؤدي إلى الدفاع عن تلك المصالح إذا تُعرِّض لها، وكثيراً ما تكون سبباً في الوصول إلى المراكز السياسية الهامة إذا كانت مبنية على قاعدة منطلقها سياسيٌّ.

* * *

يبدأ ابن خلدون بعرض تفصيلات تبين مقاصد العلوم التي يعرض لها، ثم يعود ليظهر تهافت مقاصدهم وما ذهبوا إليه.

ثم يكشف ما يمكن أن يستفاد منها وثمرته. وفي هذا يتبع منهج الإمام الغزالي في احتوائه لعلوم الآخرين ثم تفنيده لما فيها...

وهو يحدد معالم يتبعها أهل الملة في تعاملهم مع المستجدات، فإذا هو يقدمُ أفضل نظرية جهلت في عصرنا الحاضر من قبل الذين انجرفوا وراء الغرب قبل أن يتمكنوا من العلوم التي كانت لهم. [انظر آخر فصل في إبطال الفلسفة].

وهو يريد في عرضه للعلوم أن:

- يقدم مقاصد العلوم.
- يؤرخ لتاريخ تلك العلوم.
- وأهم ما ألف فيها.

مع تفصيله لهذه الجوانب في مختلف الدول التي اطلع على علومها في المشرق أو المغرب، وتوقفه عن ذكر ما لم يعرفه مع تنبيهه على ذلك.

وهو يميز بين العلوم المقصودة والعلوم الموصلة للمقاصد التي سماها الآلية، مع تحديده لمقدار المطلوب من الآلية، وأنها غير مقصودة بذاتها، فمن الضرر البالغ المبالغة في متابعتها لعدم القدرة على الإحاطة بها، ولاستفراغ الجهد فيما لا طائل وراءه [فصل٣٩].

كما يقدم للمتعلمين نصائح تعينهم على تجاوز ما يعترضهم من عقبات في متابعتهم وتحصيلهم [فصل٣٨].

* * *

* الملاحظ دقة ملاحظات العلامة ابن خلدون، وتعميم طبائع العمران التي تحدث عنها في كشفه لدخائل النفوس البشرية في إقدامها أو إحجامها.

وهذا ما دعاه إلى الرّد على مدعي صناعة الذهب بأن الحاجة والفاقة دعتهم وأَمَّلتهم في إمكانية حصولهم على مخالفة الطبيعة، في حين لم ينجرف في ذلك من كان من ذوي اليسار والقدرة.. فقد عمّ فهمه للطبائع ليكشف حقيقة العلماء المنتحلين لذلك.

* وهو يستفيد من المقارنات بين الإنسان والطبيعة لتتكشف له المعاني المضمرة في حقيقة التخلق، وما يتبع ذلك من التحولات.

* وإن كان لا يعدو في ردّه على المعلومات العلمية التي عُرِفَت في عصره، إلا أنه يقف متشككاً من صحة بعضها، فيقول عن تخلق العقرب، وزعموا أنه من الماء والنتن... [انظر فصل إبطال ثمرة الكيمياء].

* * *

إن رهافة الحسِّ عند ابن خلدون قد نبهته لخطورة **الاستبداد والعسف والقهر** في:

- **الإطار الفردي**: متعلم، مملوك، خادم.
- **الإطار الاجتماعي**: الأمم.

إذ أن القهر من الأسباب الداعية إلى الخبث والمكر والخديعة، كما أنها من دواعي الذّلِّ والمهانة.

فهو ممن دعا إلى تربية الأفراد التربية الراقية التي تجعل منهم أناساً صلحاء يُفيدون ويستفيدون.

كما دعا إلى رعاية الأمة والأخذ على يدها، ليستطيع المجتمع أن يحافظ على كيانه، ويمتلك أسباب الحمية والمدافعة.

وهو بذلك قد سبق كل من تحدث عن نظريات الاستبداد وما تعكسه على حياة الأمة أفراداً وجماعات. [فصل ٤١].

* * *

إن العلم والتعليم من المسائل الهامة التي تعرض لها ابن خلدون وأشبعها بحثاً.

ولذلك وجد له في التعليم نظريات تكاد تكون مسلماتٍ.

فهو يحذر من الاختصارات، كما ينبه على ضرورة وجود الاستعداد لتلقي العلم قبل إعطائه ثماره، فهو يحثُّ على التعليم المنطلق من القبول الفطري ثم التدرج بإعطاء المعلومات لتبنى على قواعد ثابتة. [انظر فصل ٣٧].

ويدعو إلى تعليم الصغار أصول الحساب ومسائله لما فيها من حثٍّ له على الفضائل من خلال ما تحمله في طياتها من معاني الصحة والصواب.

* * *

إن للسياسة عند ابن خلدون ضوابط عامة تحكمها، ولذلك يطلب من السياسي:

- مراعاة مافي الخارج.
- وما يلحقه من الأحوال.
- وما يتبعه من الآثار.

أي أنه يدرس الحادثة كقضية مستقلة مع الالتفات إلى ما يؤثر فيها من الخارج أو الداخل أو ينتج عنها.

ولذلك أخرج من السياسيين:

١- العلماء.

٢- وأهل الذكاء والفطنة من أهل العمران.

وأدخل فيهم:

- العامي، سليم الطبع، متوسط الذكاء.

وكل ذلك لأن من يقيس الأمور على بعضها بقياسات كلية عامة، يقع في الخطأ كثيراً، إذ أنه لا يقاس شيء من أحوال العمران على الآخر. [فصل ٤٣].

* وهو لا يرى السياسة مصدراً للشرور والرذائل، وإنما هي داعية إلى الفضائل والخير، لأن وجود خلال الخير شاهدة بوجود الملك لأهل العصبية، فإذا تنافسوا في الخير ومكارم الأخلاق فقد تمكن منهم خُلُقُ السياسة، واستحقوا أن يكونوا ساسةً لمن تحت أيديهم.

وإذا ما ابتعدوا عن الفضائل ومكارم الأخلاق وتمادوا في الرذائل والقبائح فقد حكموا على أنفسهم بانقراض ملكهم، وزوال عزهم. [فصل ٢٠].

ومن هذه الخصال المطلوب التنافس فيها:

١- إقامة مراسم الشريعة : بإكرام العلماء والصلحاء.

٢- الترغيب: - بإكرام الأشراف وأهل الأحساب.

- و إكرام التجار.

٣- مكارم الأخلاق: بإكرام الغرباء لما فيه من إظهار مكارم الأخلاق.

٤- العدل والإنصاف: بإنزال الناس منازلهم. [فصل ٢٠].

* * *

* **يستفاد من مقدمته:**

- تفصيلات عن حياته الشخصية من أصحابه، ومحفوظاته وعلومه [انظر فصل ٥٨].
- وضع تصور لقوانين سير الدول بأسمائها وأسماء رجالاتها.
- رصد حركة الثقافة بأنواعها في الدول قديمها وحديثها - نسبة للمؤلف -.
- إفراد خلاصة فكره وتجاربه في مناقشاته وتعليلاته.

* ولا نعدم خلال كلامه استطرادات أراد منها التعبير عن مكنونات نفسه وما يحمله من محبة أو بغض في قبول أو ردّ معلومة، أو تعريفٍ بأحد معارفه.

فهو حين ذكر الوزير لسان الدين ابن الخطيب صديقه في الفصل (٥٣) في معرض تبيين أنه ذو ملكة لسانية لا تدرك، لم ينس أن يذكر أنه هلك (لهذا العهد شهيداً بسعاية أعدائه) فأرَّخ هلاكه، وبين أسباب ذلك، مع تعبيره الصريح عن داخلته تُجاهه، فلذلك قال عنه: (شهيداً) وكأنه في ذلك يؤرخ لنفسه التي تقاسي من سعاية الأعداء، وتترقب أن تأتيها الخاتمة، مع أمله أن تكون شهادة..

* وهو يكثر من ذكر أصحابه الذين لهم الحظوة والمكانة العلمية، ويعرِّف بهم، وبوظائفهم، وينصُّ على أنهم أصحابه مثلاً:

(أخبرني صاحبنا الفاضل أبو القاسم بن رضوان كاتب العلامة بالدولة المرينية) [فصل ٥٨].

(ذاكرت يوماً صاحبنا أبا عبد الله بن الخطيب، وزير الملوك بالأندلس من بني الأحمر، وكان الصدر المقدم في الشعر والكتابة)[فصل ٥٨].

* ولا يغمط مشايخه حقهم، بل يذكرهم بالإجلال والإكبار، ويعرف بهم وبعلومهم، مثلاً:

(سألت شيخنا أبا القاسم قاضي غرناطة لعهدنا - وكان شيخ هذه الصناعة [أي النثر والنظم] أخذ بسبتة عن جماعة من مشيختها من تلاميذ الشلوبين، واستبحر في علم اللسان وجاء من وراء الغاية فيه) [فصل ٥٨].

وهو حين يذكرهم يشيد بذكرهم ليبين نظرتهم إليه، وما استفاده منهم، أو استفادوه منه، انظر آخر [فصل ٥٨].

* * *

إن ما ذهب إليه ابن خلدون من أعمار الدول، مَيَّزَ فيه بين العمر الطبيعي والعمر الصنعي.

العمر الطبيعي: مقترن بالمؤسس. انتقاله إلى حالة الهرم.

العمر الصنعي: مقترن بقلة وكثرة القائمين بها.. وهو عمر قد يطول مئات السنين ـ [انظر فصل في أن عظم الدولة واتساع نطاقها وطول أمدها على نسبة القائمين في القلة والكثرة].

* * *

*** ينظم حركة الحياة قانونان:**

ـ قانون التشابه.

ـ قانون التباين[1].

ففي الأول نتعرف على الحوادث المتماثلة والمتشابهة، وفي الثاني نعرف أنهما رغم تشابههما إلا أنهما حوادث متباينة متعددة.

وقد قام ابن خلدون بتصنيف أحداثه المتشابهة ومَايَزَ بينها بحيث استطاع أن يصل إلى قانون يشمل حركتها العامة الشاملة.

* * *

يغلب عليه أن يختم فصوله بآية كريمة أو دعاء، أو تنزيه الله تعالى.

وهو في ذلك يعبر عن شدة ارتباطه بخالقه عز وجل، ويبين أنه لا وصول له إلى الصحيح الموزُن من أعماله، وإصابة الرمية في أفكاره إلا إذا اقترن ذلك بتوفيق الله عز وجل، وإن لم يكنِ هناك توفيق من الله للصواب، فإن الوقوع في الأخطاء واضحٌ بيِّنٌ.

وإذا ناقش أمراً من الأمور، ووجد أن الحقّ فيه يجنح إلى منازعة غير بيِّنة المعالم، فهو يرجو أن يهديه الله عز وجل لأحسن الطرق ويريه الصواب فإنه سبحانه الموفق للصواب بمنه وكرمه، وهو عز وجل أعلم.

* الفواصل الإيمانية التي يضمنها فصوله أو يختم بها كلامه: وهي تظهره بمظهر الإنسان الواعي الذي يعلم قصور معرفته وعلمه، مما يدعوه إلى الارتباط بالعالم على الحقيقة.

وهي تعبر عن مقدرته على تفهم الموضوع وربطه بالآيات المعبرة عنه، أو المشيرة إليه.

كما يكشف فيها عن تردده في قبول بعض المعاني المطروحة.

* * *

وإذا توقفنا عند كلامه في المفاضلة بين **الشعر والنثر بين الجاهلية والإسلام**. وجدنا نظريته تُعَبِّرُ عن مدرسةٍ دقيقة في فهمها، لا تجعل للأهواء الشخصية مكاناً.. فلم يذهب

---

(١) ـ انظر فلسفة ابن خلدون الاجتماعية لطه حسين (ص٤٢ - ٤٦).